# المكان الأليف والمكان المعادي
# في سرود علاء شاكر

نور صباح كاظم الحمود
أ.د. حسين عبود حميد الهلالي
جامعة البصرة – كلية التربية القرنة

# A familiar place and a hostile place
# In the narrations of Alaa Shaker

Noor Sabah Kazem Al-Hamoud
Prof. Dr. Hussein Abboud Hamid Al-Hilali
University of Basra \ College of Education/ Al-Qurna

## ملخص البحث

مما لا شك فيه أن المكان يصنف من ضمن أهم العناصر التي يقوم عليها بناء العمل الإبداعي بل أصبح العنصر الذي لا يمكن لأي عمل سردي الاستغناء عنه فمن الحتمي وجوده وانطلاقا من هذه الأهمية انبرى النقاد والدارسون لدراسة هذا العنصر والغوص في سبر أغواره و كشف علاقاته وتبيان أنواعه.

في بحثنا هذا تناولنا نوعين من المكان هما(المكان الأليف) و(المكان المعادي) وإن هذا التصنيف للمكان الذي اعتمدناه في بحثنا قد ولد من رحم علاقة المكان بالشخصية، فما بين المكان والشخصية علاقة تفاعلية قائمة على مبدأ التأثير والتأثر وحينما عزمنا على اتخاذ هذين المكانين بوصفهما أصلًا في دراستنا كان لابد من توضيح ماهية كل من المكان الأليف والمكان المعادي. اتخذنا من نتاج الكاتب البصري علاء شاكر مادة تطبيقية في هذه الرحلة الاستكشافية ووجدنا عبر ذلك أن التفاعل الكائن بين الشخصية والمكان أنجب أماكن أليفة محببة تتمثل بالبيت والنهر والأماكن المقدسة والمروج الخضراء.. إلخ وأماكن معادية تجد الشخصية أنها في حالة تنافر معها تتمثل بأماكن الحرب والمدن والملاجئ وغيرها، وهذا ما سنوضحه بالتفصيل في مادة البحث.

الكلمات المفتاحية: المكان، الشخصية، الأليف، المعادي

Abstract

There is no doubt that the place is classified among the most important elements on which the construction of creative work is based. It has become the element that no narrative work can do without, it is inevitable to exist, and from this importance critics and scholars have been able to study this element and delve into probing its depths, revealing its relationships, and showing its types.

In our research, we dealt with two types of place, namely the familiar place and the hostile place. This classification of the place that we adopted in our research was born from the womb of the relationship of place to personality. There is an interactive relationship between place and personality based on the principle of mutual influence. When we resolved to take these two places as an asset in our study, it was necessary to clarify what the familiar place and hostile place mean. We took from the product of the writer Alaa Shaker an applied material in this expedition and through the interaction between the character and the place, it is found that it has given birth to beloved familiar places, represented by the house, the river, the holy places, and the green meadows ...etc. as well as the possibility of hostility finds the character in a state of disharmony with it represented by places of war, cities, shelters, etc. This is what we will explain in detail in the research article.

Keywords: place, personality, familiarity, hostile.

المقدمة:

على الرغم من أهمية المكان وفاعليته إلا أنه مر بعدة منعطفات حتى تبوأ هذه المكانة المرموقة الآن فقد كان مفهوم المكان في بادئ الأمر ((مجرد خلفية أو ديكور أو وعاء محايد تدور فيه أحداث الرواية))[١]، إلا أن الأمر لم يستمر طويلا على هذا النحو إذ انجلى الغياب عن النظرية التي تعنى بالمكان وعلى وجه الخصوص المكان الروائي حيث أخذت النظرة الهامشية لهذا العنصر بالانحدار شيئا فشيئا والالتفات إلى أهميته جراء تطور الجنس الروائي ففي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين التفت الأدباء إلى أهمية هذا العنصر ووظف بشكل كبير في نتاجهم الروائي بدءًا من الرواية الرومانسية وروايات تيار الوعي وصولا إلى الرواية الحديثة ومن هنا انقشع الخجل عن الدراسات النقدية وأخذ ميدان النقد يكتظ بدراسات المكان من كل جنباته واختفى المنظور السائد سابقا على أن المكان عبارة عن حدود وأبعاد جغرافية ليكون مفهومًا متخيلًا لا تعيقه حدود المسافة فهو مطلق العنان وأخذ يعد عنصرا مهما ومكونا أساسيا في أي عملية حكائية كانت فهو أيقونة مكتنزة بالدلالات متشعبة العلاقات تجري فيه الأحداث وتتحرك فيه الشخصيات وتؤدي الدور الموكل إليها[٢]،حتى أن النقاد الذين كانوا يرون من القصة والرواية فنًّا زمنيا أدركوا أن الحدث الذي يحتويه النص الإبداعي تظهر فاعليته عبر المكان[٣] ومن هذا المنطلق فقد توصل النقاد إلى((ان العمل الأدبي حين يفقد المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته))[٤] وبهذا صار((يستحيل الفن بدونه أن يسمى فنا))[٥].

المكان وعلاقته بالشخصية:

تعد الشخصية ركنًا أساسيًا في العملية السردية وهي الحاملة لرسالة

المؤلف والمعبرة عن مقاصده، وهي كذلك عنصر يتسم بالحيوية والتفاعل المستمر في بوتقة الخطاب السردية مؤدية الدور الموكل إليها، أي إنها في حركة دائمة ومن الطبيعي ان هذه الحركة تحدث ضمن حيز معين وهذا الحيز نقصد به المكان الحاوي كلّ ما يحيط بالشخصية من ظروف وعوامل ومؤثرات ومحفزات وانطلاقا من هذا، تكون باحتياج تام للمكان لكي تؤدي دورها[٦] أي إن هناك نوعًا من الترابط بين الشخصية والمكان يشكل علاقة من القوى التبادلية التأثيرية والتأثرية ففي التبادل نجد أن((المكان والشخصية يستمدان معناهما من بعضهما))[٧] فالمكان ((لا يظهر إلا من خلال وجهة نظر شخصية تعيش فيه))[٨] وإن وصف المكان يكون وصف مستقبل الشخصية بحسب رأي فليب هامون[٩].

وبذلك تكون بين الشخصية والمكان علاقة تأثير وتأثر فالمكان يؤثر بشكل مباشر في الشخصية حتى يمكن أن نعدّه العتبة التي عن طريقها نستطيع اختراق الشخصية والولوج إلى عمق نفسها والتعرف على كل خباياها أي إنه ((يعكس الحقيقة النفسية للشخصية، فالمكان ينعكس على نفسية الشخصية فينتقل من التأثيرات الخارجية إلى الباطن النفسي لها))[١٠]

ومن هنا نلاحظ أن المكان((لا يمكن اكتشافه وتلمسه إلا إذا تحركت فيه الشخصيات وطبعته بطابعها أو ترك المكان تأثيره فيها))[١١] وانطلاقا من علاقة المكان بالشخصية قسم المكان على قسمين هما:

١-المكان الأليف.

٢-المكان المعادي

١-المكان الأليف:

المكان الأليف ويمكن تسميته بالمكان المحبب ونعني به كل مكان نشعر تجاهه بالألفة والارتياح والاندماج إذ إنه يحمل بعدا إيجابيا يخلق عن طريقه

جوا نفسيا بين الشخصية والمكان ويبعث في النفس نوعا من الارتباط والانجذاب إليه فتصبح العلاقة بينهما متينة وقوية إلى حد التماهي لأن الشخصية تجد ذاتها فيه فهو يمدها بشكل مستمر بالاطمئنان، فهو الجزء الذي لا يتجزأ من حياة الإنسان بكل ما فيها من تفاصيل[١٢] حتى أن غالب هلسا أضفى عليه، صفة الأمومية[١٣] فالشخصية تكون بحاجة إليه كلما ابتعدت عنه،وفي هذا النوع من المكان يحدث الانتقال من الزمن الآني الحاضر إلى الزمن الماضي عندها يصبح مسرحا لذكريات الشخصية[١٤] وقد يتمثل بالبيت كبيت الطفولة و كذلك المقاهي والحدائق والأنهار وغيرها والشخصية لا تحصر نفسها في مكان محبب واحد وإنما تتعدد الأمكنة التي تشعر تجاهها بالحب ففيها تمارس الشخصية حريتها دون قيد أو شرط وكذلك تكون بالنسبة إليها الموقع المفضل للهروب من الواقع و الجنوح إلى التأمل والخيال.

أما بالنسبة للمكان الأليف في نتاج علاء شاكر فنجد أن البيت يقع في طليعة الأماكن الأليفة والبيت في اللغة العربية اتخذ معانِي متعددة ما بين، المنزل والوطن والعائلة وكذلك المعبد[١٥] ولما كان البيت من أهم الأماكن المحببة لدى الشخصية فهي تفرز تجاهه كما كبيرا من مشاعر الانسجام والامتزاج والحب والألفة فعندما توجد الشخصية في فضاء البيت تتبدد كل همومها وتبدأ الطمأنينة بالتسلل إلى عقر نفسها، وسبب شعور الشخصية بهذه المشاعر تجاه البيت هي الفطرة التي غرست فيها هذه الصورة للبيت فهو شعور لا إرادي نابع عن قناعة من أن البيت((جسد و روح، وهو عالم الإنسان الأول))[١٦]

ونحن هنا لا نقصد من تفاعل الشخصية مع البيت متمثلا فقط بحدوده الجغرافية فالأمر يذهب

إلى أبعد من ذلك فهذه المشاعر ترى النور عبر ما يحتويه المكان من ذكريات وأحداث و ما كان يحكمه من قيم وأصول..إلخ وهنا وفي هذا السياق يصدح رأي ياسين النصير((فالإنسان لا يرث من المكان ما يمثله ظرفا يحتوي الأشياء فقط بل يرث كل ما في المكان من تاريخ وقيم ومفاهيم تتجذر أصولها، وتتعمق في نفس الإنسان الذي ينشأ في هذا المكان ويعيش فيه))[١٧]

وفي مادة البحث نجد أن علاء شاكر استعمل فضاء البيت في نتاجه و وكذلك وقف عند جزء البيت(الغرفة) في قصة(شفتان بطعم الكاكاو) كان البطل شديد الارتباط ببيت خالته إلى الحد الذي جعله يغرم به ((الأوقات التي أقضيها في بيت خالتي كانت ساحرة، ولكني نسيت أكثر تفاصيلها، وبقي منها صور تُقبل في أوقات أكون غارقا في العمل أو في أثناء جلوسي في حديقة بيتي الخلفية، تصلني مثل نسيم بارد في أوقات صيف حارة ورطبة و تختفي))[١٨]

هذا النص يحمل دلالات مكثفة حول مشاعر الشخصية تجاه (بيت خالته) فذاكرته تحمل صورا متعددة له يستعيدها في أي زمان ومكان وعلى أي حال كان فلا فرق في استردادها إن كان منهكا في العمل أو مسترخيا في حديقة بيته لأن ذكرى ذلك البيت تبعث في نفسه الطمأنينة وشيئا من ذكريات الطفولة حتى أننا نشعر بمدى الطاقة الإيجابية التي تنبعث في نفسه فيشبهها هو وكأنها(نسيم بارد) مليء بالرقة والعذوبة تزيل ذكريات ذلك البيت عنه رتابة الحياة

((كنا أنا وبنت خالتي نؤدي دروسنا معا في غرفة المعيشة، الغرفة التي تتسع للأقارب الصغار والكبار عند أماسي الخميس))[١٩]

ثم يتذكر أثاث الغرفة البسيط((لم يكن في الغرفة أثاث فخم،

كانت بسيطة و مرتبة))[٢٠] فإن تلك البساطة لم تنقص من أثرها في نفس الشخصية شيئًا لأنها كانت تحوي في جوفها على حد تعبيره(كل الأقارب) من صغارهم وكبارهم وما يحدث من اجتماعهم تحت سقف هذا البيت وعند زوايا تلك الغرفة يحفز ذلك المشهد بتوقد شعلة الحب تجاه ذلك المكان.

في قصة (لو يمهلني الملاك) لربما يكون من باب الإنصاف أن علاء شاكر أبدع في تبيان مدى العلاقة الكائنة بين الشخصية والبيت الذي تقطنه ((اختفى بيتي الصغير الدافئ، البيت الذي أسكنه، جنة الدنيا))[٢١] هنا البطل كان قد قتل على يد أشخاص لا يعرفهم ارتفعت روحه بعد أن اخترقت رصاصة جمجمته من جانب حاجبه الأيسر، البطل وهو في حالة انفصال الروح عن الجسد أول ما تبادر إلى ذهنه (البيت) فعلى الرغم من أن روحه تحررت من شرنقة الجسد وأصبحت حرة تاركة أرضا ملئت بكل أنواع الظلم و الاضطهاد وانتهاك الحريات إلا أنها بقيت مصرة على حبها لذلك البيت الذي حوى كل تفاصيلها وأحلامه وأسراره وإبداعاته ((أوراقي ظلت مصفوفة وقلمي مفتوح الغطاء كنت دونت قصتي الجديدة عنوانها الموت ضحكا))[٢٢] ما زال شعور الانتماء والدفء متمركزا في فضاء البيت للحد الذي جعله يصرح بأن بيته الصغير هو جنته في دنياه فما مدى الألفة التي جعلت الشخصية تطلق ذلك الوصف؟.

ومن الأماكن المحببة أيضا النهر، والنهر هو ذلك التمرد الذي اخترق يباس الأرض ليجري مساره المائي من خلاله وفي نتاج علاء شاكر كان النهر مكانا أليفا للشخصيات ففي قصة(حلم أخي) كان الراوي يسرد حياة أخيه ذلك الأخ الذي تحول فضاء بيت العائلة عليه إلى مكان

معادٍ بسبب السياسة الأسرية التي كانت تحكمه، كانت ربما شبه محاربة لطموحه غير المحدود ربما لم تستوعب حبه لتعددية المعرفة التي كان تواقا لها وتعده ضربا من ضياع الوقت أو ربما جنسا من سخف العمل أو نوعا من الجنون((كان رأس التمثال الذي صنعه أخي من الطين الحر كثير الشبه برأس أبي، ولكنه ينفي ذلك خوفا من وشايتي قد تسبب عقابا له.... وصنع من الطين المتبقي لعبة شطرنج حطمها أبي... لم يكن أخي نحاتا و موسيقيا فقط بل كان يدرس علم التشريح، عندما سمعت لعنات أمي تنصب عليه ركضت، وجدته صالبا ضفدعا ضخما.. كانت أحلام أخي جميلة وغريبة))[٢٣] ويقول أيضا ((خبأ رواية(الشيخ والبحر) لهمنغواي مساء ذلك الخميس تحت الوسادة. كانت العائلة قد أكملت سهرتها في مشاهدة فلم (نحن لا نزرع الشوك) انطفأ الضوء فتوزعوا في الغرفة الواحدة نائمين خطوطا متقاطعة مثل عيدان الكبريت مشبوكة على الأرض كان وقتها قابعا تحت ضوء المصباح الكابي في الباحة وكانت التقاطات حواسه مركزة على عالم لا يرغب أن يفيق منه حين يطلع النهار))[٢٤] لكن كان لرفسات أبيه القوة الأكبر المحفزة نهوضه

بعد ذلك وجد من النهر الملجأ الوحيد له كأنه يذهب إليه فارا من كل ما يزعجه يبقى هناك وقتا طويلا((لم ينه غداءه ظهيرة ذلك اليوم، خرج إلى النهر يملأ العلبة بالدود الأحمر يجلس منحنيا تحت الجسر، ينكش الجرف الطيني بغصن التوت في ظل الجسر البارد ينصت لوقع أقدام الحوذي وحماره وهما يعبران فتنعكس صورتهما على صفحة الماء المنحسر.. الطريق إلى النهر يستغرق زمنا طويلا بحساب الفراسخ ولكنه قصير لا يربو على ثلاثة

أرباع الساعة في حساب زمنه لعله رأى طيف طفولته، هفواته المبكرة أحلامه الكبيرة))[٢٥] حتى أنه في وجوده أمام النهر ينفصل عن الواقع يترك كل مايزعجه حتى نظرات الرجل الكبير الذي كان يشاطره المكان إذ ولد النهر في ذهنه حكمة مفادها((ان النهر يحتاج إلى صبر وقليل من الحظ))[٢٦] ودائما ما يفكر بالمتعة تلك التي((يتذوقها حالما يرمي الشص ويسمع ال (بق)))[٢٧]

ومن المواضع المحببة أيضا للشخصيات (الأماكن المقدسة) ولا شك في أن جميع الأديان تؤمن بفكرة التقديس المكاني وتختلف أسباب هذا التقديس من مكان لآخر ومن دين لآخر ومن مذهب لآخر فتعددت الأسباب والقدسية واحدة وربما من بين أشهر هذه الأسباب يعود إلى أنه موضع دفن لأحد الأنبياء أو الأوصياء والأولياء أي إنه موضع دفن لأحد صفوة الخلق، فاكتسب المكان هذه الميزة من علو مقام المدفون فيه فتتقدس به وتتنزه هذه البقعة بفضل المدفون فيها من كل دنس ويصبح ذلك المكان موضعا للبركة والطهارة وتزكية النفس، وهذا ما نجده في مقدسات العراق كما في النجف الأشرف وكربلاء المقدسة والكاظمية...إلخ، ولابد من الإشارة إلى أن علاء شاكر استعمل العتبات المقدسة بوصفها مكانًا محببًا في نتاجه.

في قصة (الزيارة) يبين مدى دهشه الشخصية حينما أخبرتها جارتها ((سنذهب غدا نزور تعالي معنا))[٢٨] كان هذا الخبر أشبه بحلم يصعب تحققه على أرض الواقع كانت متلهفة لأن تذهب إلى ذلك المرقد المقدس تركت كل شيء لكي تصل إليه((وهي لم تكن تحلم حتى بهذه الزيارة المفاجئة، في صباح العيد تركت زوجها وابنتها وركضت إلى السيارة التي وقفت أمام الباب))[٢٩] فأصبحت كطفلة تاهت

في فلوات الأرض وفجأة وجدت من يوصلها إلى أهلها كان الوصول إلى ذلك المكان غاية أملها كأنها حينما توجد بين أحضانه ستولد من جديد.

((التفت بعباءة أخرجتها من حقيبتها اليديوية الصغيرة وهي تقترب بخطوات قلقة من الباب الرئيسي، وقفت تتأمل القباب والمنائر، كانت الحمائم تغطي سماء الحوش الكبير، والزائرون يحومون مثل أسراب نحل تتجمع قرب باب خليتها.. شيء ما يجذبني، يقود خطواتي المترددة، وبدون إرادة مني وجدت نفسي مخترقة الجموع من دون حتى أن يوقفني الكيشواني قرب الباب المزجج على ألواح من الذهب مشرع تبطنه ستائر بيضاء تشف على أضواء الصحن المضاءة))[٣٠]

كانت في حالة من الروحانية عجيبة تتحدث مع صاحب القدسية وكأن الغطاء كشف عن عينيها محملة بدعوات وأمنيات يكتسيها يقين أنها ما إن تخرج من أعماق قلبها وتصل إليه تنفلت لتصل إلى التحقق فتلك الحضرة كانت أشبه بمدينة العجائب، ما ترغب يتحقق ((سأهمس بالدعاء.

أهلا بضيفتي الجميلة أليس غريبا أن أراك هنا؟ لا يهم أنت هنا بأمان، لعلي كنت بحاجة إليك لهذا جئت، على العموم شكرا، أنا كنت أدعو، أسمعتيني؟ طلبت مرادي.

حركت رقبتها... وبنظرات هادئة وجادة وكانت مصغية أيما إصغاء، رفرفت جناحاها....

التفتت نظرت المرأة الجالسة قرب الباب ما حصل

نلت مرادك، قالت ذلك برضا

التفتت اليها وابتسمت))[٣١]

ومن الأماكن التي تألفها الشخصيات الحدائق تلك الساحات الخضراء النابضة بالحياة ذات الهواء المنعش الرطيب يتجمع فيها الناس

للترويح عن أنفسهم لأن للون الأخضر طاقة تعمل على سحب الطاقة السلبية وامتصاصها منهم فهو لون الحب والسلام والحياة وحضر هذا المكان في مادة البحث مقترنا مع ثيمة الحب ففي قصة(رسالة حب فيزيائية)

((حديقة الأندلس كانت ملاذنا كل ظهيرة))[٣٢] كان البطل العاشق وعشيقته يرون في حديقة الأندلس الحضن الدافئ الذي يحوي جسميهما وكذلك حديقة الأمة التي كانا يختفيان فيها وراء شجرة كبيرة يتواريان بجذعها عن عيون الناس يتبادلان أطراف الحديث وكل ما يجول في خاطريهما ((كنا خرجنا معا آخر مرة إلى حديقة الأمة وهي تخبرني عن جدتها حين قالت لها(أصبحت امرأة ناضجة نريد أن نزوجك) تتوسد فخذها قالت: هكذا فعلت جدتي، وكأنها تريدني أن ألمسها... كنا وحدنا خلف شجرة عالية فكرت في كثير من الأشياء))[٣٣]

أما بالنسبة للمترجمة نور في(رواية مقبرة الإنكليز) فكانت الحديقة بالنسبة لها محط الأحلام فكانت تتمنى فارس أحلامها يأتي إليها ويأخذها إلى حديقة الأندلس حيث العشاق والمخطوبون ((أما له أن يأتي في النهار، يرتدي بدلته البيضاء، وربطة العنق الحمراء ويحمل لي باقة الورد التي أحبها، باقة ورد القرنفل الأبيض الملفوف بالياسمين والآس.... يصطحبني إلى حدائق الأندلس حيث العشاق والمخطوبون))[٣٤]

على كل حال جاءت الحديقة ملتحفة بغطاء الألفة فالشخصيات كانت تستشعر الحب عبرها.

٢-المكان المعادي:

ونعني به المكان الذي تشعر الشخصية تجاهه بالكراهية والعداء فبمجرد ارتيادها إياه أو تذكره تتدفق داخلها حزمة من الأحاسيس المؤلمة

فهو يجرد الشخصية من استقرارها النفسي وينتابها فيه الخوف والذعر والاضطراب أي إنها تفتقد فيه إلى مقومات الراحة والأمان ويكون صاحب سطوة بحيث لا تستطيع ممارسة حريتها فيه ولربما نتجت تلك المجافاة بينهما لأن الشخصية تعرضت فيه إلى عنف أو قهر نفسي أي بمعنى أدق عانت فيه سلسلة من العذابات ونتيجة لهذا التراكم الحسي السيء صار ذلك المكان مصدرا لحزنها وكبتها فأصبحت تشمئز منه حد النفور كالسجون والمعتقلات وكذلك المنفى..إلخ.

وفي بعض الأحيان نلاحظ أن أماكن متعارف عليها أنها أماكن تمتاز بالألفة إلا أنها تحولت إلى معادية وذلك يكون بفعل سلبيات كثيرة مارسها المكان على الشخصية أدى إلى إحداث هذا التحول أي إن ((المكان مرتبط بالجو النفسي للفرد))[٣٥].

تعددت الأماكن المعادية وتنوعت في مادة البحث وربما تقع(المدينة) في طليعة الأماكن التي تنفر الشخصيات منها فنجد أنها تقف موقف الضد تجاهها فلا يوجد أي توافق بينهما إذ إنها تعدّهُ فضاء سلبيا لا يحمل أي مؤهل من مؤهلات العيش الآمن الرغيد على الرغم من أن المدينة تكون دائما حاوية مختلف مظاهر الثقافة و الحداثة وأغلب الأحيان تكون محط اهتمام المثقفين أي إنها تنتمي للمكان المحبب الذي يثير في النفوس فضول الاستكشاف لكنها تتحول إلى مكان معاد حينما تصبح محط نزاع تتحول حداثتها إلى جاهلية مقيتة وطرقاتها وشوارعها طامورة تزهق فيها الأرواح بغير حق لذلك فصورة المدينة في مادة البحث ارتبطت بالدمار والعنف والكبت فطموحات الشخصية ومبادئها لا تتماشى وجو المدينة المتخم بالظلم، والصراع من أجل السيطرة

والنفوذ وفرض فكرة ما لأجل جماعة معينة أو حزب معين[٣٦].

المدينة في رواية (مقبرة الإنكليز) نجد موقف المترجمة نور تجاه المدينة موقفا سلبيا بينهما علاقة من النفور وسبب هذا يعود إلى ما في المدينة من قهر سياسي وسوء الوضع الاجتماعي وسيطرة العصابات الظلامية عليها ومن المفارقات التي نلاحظها أن الصحفي الأمريكي كان يقول لنور ((ساحرة مدينتكم))[٣٧] إلا أن المترجمة كانت لا ترى من سحر المدينة إلا صورة إشهارية تغري من ينظر إليها نظرة سطحية ولكن كلما تعمق فيها وعرف جوهرها لا يرى من ذلك السحر والروعة طيفا وحينما عاش الصحفي الأمريكي مدة من الزمن في مدينة البصرة وتعمق في سبر أغوارها أدرك ما كانت ترمي إليه نور وهذا يتضح عبر التقارير التي كان يرفعها عما يسود من أحداث في البصرة من ((خطر العنف،وعن الجماعات الإسلامية المتطرفة، وعن اختراق الشرطة))[٣٨].

نور كانت تعاني كثيرا من الظلم والقهر والاضطهاد فقد كانت محاربة في جوف المدينة بسبب طبيعة عملها بوصفها مترجمة لصحفي أمريكي فالشرذمة التي حكمت البصرة آنذاك كانت تعد هذا العمل ضربا من العمل الجاسوسي فتعرضت جراء ذلك إلى التهديد مرارا وتكرارا فالخوف كان يسيطر عليها أينما حلت وأصبحت في حالة توتر دائم ((فأنا أرافقه في جولاته داخل المدينة في الفندق والشارع والمطاعم والمؤسسات الحكومية وكنت أشعر بالعيون تترصدني وتلقيت أكثر من مرة مكالمات تهديد من جهات لا أعرف مصدرها.. وكنت أعيش رعبا مخيفا مجلجلا))[٣٩] وكذلك قولها ((كنت أخاف كلما خرجنا من مكان إلى الشارع، أشعر أن سيارة تقف على مبعدة وثمة ماسورة تمتد من مكان ما،

ستطلق الرصاص))[٤٠]

وما كان يزيد نفورها أيضا هو القتل الذي أصبح ظاهرة تحدث يوميا من دون انقطاع حتى حينما تتجول في شوارع المدينة تشم رائحة الموت في كل ثناياها ((أحداث القتل تنتشر بسرعة في أنحاء المدينة، كل يوم تشهد المدينة عشرات المغدورين، وثلاجات الطب العدلي تغص بالقتلى، أجساد متيبسة زرقاء ممزقة مثقوبة بأجهزة ثقب كهربائية ورصاص، مسلوخة الجلدة ومكسورة العظام))[٤١] فكانت أخبار الموت في المدينة وطرق القتل الشنيعة تثير رعبها لأن القتل كان يطال كل الفئات الصغار قبل الكبار ولا يفرقون فيه بين الأجناس فالذكر والأنثى على حد سواء ((قتل أربعون شخصا بينهم نساء وأطفال بانفجار سيارة مفخخة وأصيب آخرون بجروح... وقالت مصادر الشرطة إن الحادث نجم عن انفجار عبوة ناسفة كانت مزروعة في مولدة صغيرة داخل سوق شعبي وسط المدينة))[٤٢]

فالمدينة بالنسبة للمترجمة نور مكان غير آمن لا تشعر تجاهه بالألفة والحب فلم تعش فيها حياة هادئة هانئة بل بالعكس كانت تصارع كل يوم من أجل البقاء أي بقاء هذا والرعب يتوسط الروح فهي ميتة على قيد الحياة حتى أنها تقول لهانس ((نرى أنفسنا وقد هدمها الموت إننا ميتون وإن كنا نعمل))[٤٣]

وفي قصة (الراية السوداء) شكلت المدينة نقطة بؤس للشخصيات أيضا حتى أن البطل وصديقه قررا أن يسافرا ليلا هربا من رؤية الخراب الذي حل بالمدن((الطريق وحده من يجعلك لا ترى المدن، لذلك اتفقنا أن نسافر ليلا، المدن خرابها واحد ونكدها واحد))[٤٤] فعندما وصلا إلى العاصمة بغداد قلب العراق النابض أصابتهما الدهشة لما رأوه و باستفهام إنكاري

((هل كنا نحلم أم إنها العاصمة؟))[٤٥] فالمدينة لم تعد كما عهدوها حينما دقت طبول الحرب فيها صيرتها إلى أرض خربة لا معالم للحياة فيها ((تغير كل شيء يا صديقي. كانت بغداد أجمل. ألم أقل لك إن المدن تتشابه بالخراب أذكر الحرب كيف دكتها، كان ليلها مظلما باردا موحشا وقاتما، كابوسها يجثم على الروح))[٤٦] وكأنها في خيبة أمل كبيرة أصبحت المدينة ليست كما كانا يطمحان حل فيها الخراب والدمار الظلام يلفها صارت موحشة إلى حد النفور وكذلك القتل فكان الموت هو ما يميزها و شعاع الحياة لا يكاد أن يرى ((لكن الموت ظل يلازمها، وهو يتشظى إلى ظلال عديدة، أكثر حدة و صلابة، وحضوره أكثر جرأة من ظل الحياة الرفيع. يتمايل مثل لهب شمعة))[٤٧].

فكل شيء فيه يبعث على الخوف والألم القلوب واجفة راجفة سيارات الإسعاف لا تكف من دويها((ليل مثقل بالتوجس والخوف، مصحوب بأصوات الإسعافات والرصاص))[٤٨] فلم تشعر الشخصيات تجاهها بالحب ولم تكن تود المكوث فيها أكثر ففي أحضانها لا أمان ولا طمأنينة.

وفي قصة (قيامة) نجد البطل كيف يصف خراب المدينة وتلوثها واشمئزازه منها ومما يراه فيها ((وحدي داخل مدينة كأنها مدينة أشباح، أسير في شوارعها الخربة الكثيرة الحفر كأنها بثور وجه مصاب بالجدري .. النفايات تكومت في كل زاوية وشارع، تشم رائحتها من كل مكان، ولم يبق مكان حتى النهر الذي يشق المدينة ملأته النفايات وأصبحت الألف الجرذان تعبر النهر على جسر النفايات العائم، وبدا شكل المدينة المهجورة وكأنها خارجة من حرب كونية البنايات واجهاتها محطمة بفعل الرصاص والحرائق، تقشر طلاؤها وكبت ألوانها، الريح تبعث على الوحشة))[٤٩]

ومن شدة قساوة منظر المدينة وصفها بالمدينة المهجورة، ووصفه لواجهات البنايات بهذه الطريقة ما هو إلا دليل على العنف الذي تعرضت له وكأي مدينة زارها الخراب واستحسن المكوث فيها لابد للقتل من أن يأخذ نصيبه فيها ((فاتني أن اقرأ الصحيفة ـــــ وماذا أقرأ فيها؟ تمثال مزقت جسده البرونزي عبوة بتهمة طائفية الساعة الآن ١٠ تفجيرات و ٤٥ جثة و ٣٠ جريحًا، الشمس اليوم حمراء تعكس لون الدم في شوارع المدينة)) [٥٠] وما إن تمركز الظلم فيها أصبحت مكانا لا يصلح للعيش البشري.

ومن الأماكن المعادية(أماكن الحرب) ـ أي كل مكان يخص الحرب من معسكرات أيا كان نوعها وسوح المعارك ـ وهذه الأماكن بلا أدنى شك خلفت أنواعا من العقد النفسية في الشخصيات ونجد في مادة البحث حضورا واسعا لهذا المكان غير المحبب وسوح المعارك والمعسكرات تمثل صراعا أزليا بين الموت والحياة فالجندي يصبح حائرا أ يكون قاتلا أم مقتولا؟، وتأخذ الاستفهامات بالتدفق في رأسه أين يكمن الصواب؟ يظل في حيرة لا يعرف أين المفر فنزوله إلى ساحة المعركة يسلبه الإرادة والقرار لا كيان له ولا رأي والقرار كله يقع على عاتق السلطة فيصبح كرجل آلي ماذا توجه إليه من أمر ينفذه بانصياع لذلك أصبح مكانا معاديا لأن الإنسان فيه يكون أقرب ما يمكن إلى الموت.

معسكرات التصنيع في رواية(مقبرة الإنكليز)((لا أستطيع أن أتذكر كل شيء فقط الأشياء التي حدثت أخيرا، نباح الكلاب، اختراق الرصاصة، الوجوه البشعة، الرعب، الخوف نفسه.. كنت أركض، تدك قدماي الحفر والمرتفعات هابطا وصاعدا وأحشائي تهتز داخلي مثل دراهم في صندوق ومن فوقي أشعلت

السماء بنيران مضادة، ولكنها كم تضرب أشباحا لا طائرات، تلك الليلة دكت الطائرات معسكرات التصنيع العسكري الذي كانت تحميه وحدتنا العسكرية))[٥١] كان المكان مرعبا جنود على الأرض وطائرات لا تعرف الرحمة تدك كل شيء حتى أنه يشبه ما فعلته الطائرات ((والطائرات عزمت على أن تحيي حفلتها الجنونية لتقلب المصنع العسكري رأسا على عقب))[٥٢] فالمكان آنذاك لم يوفر له الأمن والحماية ولم يحضنه فكان فيه على حد تعبيره((كنت أرتجف من الخوف والبرد))[٥٣] وكانت غايته وهدفه الأسمى أن يبتعد عن ذلك المكان مهما كلفه ذلك الأمر فهو لا يأبه لآلامه و جروحه فقط يريد الخلاص من ذلك المكان((كنت أشعر بألم في رأسي، ألم سيطر عليَّ ولكني كنت أركض في الظلام كمن يركض إلى ما لا نهاية))[٥٤]

وبعد تلك الضربة حُصِرَ ما بقي من الجنود في معسكر صغير في غرفة مستطيلة كان مشمئزا من قذارتها((الفوضى تعبث على الغثيان، البطانيات مبعثرة، البساطيل تنتظر قرب أعمدة السرير، سلة الزبالة الطافحة، القصعة عفنة، أقداح الشاي الملوثة ببقايا السواد، أعقاب السجائر))[٥٥] فلم يستسغ المكوث في هذا المكان لا هو ولا الجنود الذين معه كانوا كلهم يتذمرون يلفظون المكان والمكان يلفظهم فهم في صراع من الحنق والغضب لوجودهم فيه.

وفي اليوم التالي أُعيد الجنود إلى أكثر مكان قساوة (ساحة الحرب) ((في صباح اليوم الثاني وجدنا أنفسنا وجها لوجه مع الموت لا نعرف من أين تأتينا رشقات الرصاص وقذائف الراجمات))[٥٦] وكما أشرنا مسبقا إلى أن الجندي في ساحة المعركة يظل في تشتت دائم هل من الحق قتل الطرف الآخر وهذا ما نجده عند البطل((الحرب

الداخلية تبدو أكثر قسوة وضراوة من الحرب الخارجية، عندما لا تستطيع أن تضغط على الزناد وتدفع بالرصاص إلى قلب أخيك في المعركة))[٥٧]

وحينما لاحظ البطل أنه لا يوجد أي انتماء بينه وبين ساحة المعركة اتخذ قرارا حازما رأى من الصواب ترك مكان لا تجد أنك جزء منه مكان يسلب حريتك أحق أن تتركه((كانت فكرة واحدة تسيطر علي، هو عدم قناعتي بما يحصل، فتركت المكان وهربت))[٥٨]

وفي قصة صمت العقارب أيضا كانت الشخصيات نافرة من معسكر التدريب واختارت الهروب على المكوث فيه لأنه مكان لا يشبهها ولا تستطيع أن تمارس فيه حريتها ففيه تكون خاضعة وخانعة ومنفذة لكل ما تؤمر به فترك المكان كان هو الحل المناسب((لم يكونا موجودين في صباح اليوم الثاني، كانت الخيمة فارغة، ملابسهما العسكرية مرمية على فراشهما وفردات حذائيهما العسكريين مرمية ومتربة عند باب الخيمة))[٥٩]

ومن الأماكن المعادية(الملجأ) في قصة(إني أطير) عندما شمرت الحرب عن سواعدها وأخذت القنابل والصواريخ سبيلها إلى المنازل والمحال والشوارع ما كان على الناس إلا أن يخلوا دورهم التي من المفترض ان تكون صوامع آمنة ويتجهون إلى الملجأ، في الملجأ الكل كان يشعر بالخوف، أطفال ونساء ورجال قلوبهم قبل أطرافهم ترتجف من الخوف كانوا يشعرون بقرب الموت فلا أمان ولا استقرار الكل يلهج بالدعاء عسى أن يكون الخلاص قريبا((في تلك الليلة اقترب الموت منا وكان المطر والريح يعصفان والظلام وثمة طرقات على الباب كاد أن ينخلع قلبي ولم تنفع أفواه أطفالي وزوجتي وهي تتبتل بالدعاء لوقف هذا الجنون،كنا خرجنا

متلاصقين قاصدين ملجأ الحي القريب،... ويبتعد باب الملجأ كلما توغلنا في المسير،وصلنا وعند أبعد زاوية ملتفين مثل صرة ملابس مبللة رجال واقفون واجمون بوجوه متعبة أرهقها السهر لليال، الأطفال نائمون بوجوه مستكينة حالمة،..المشهد يتكرر لحظة انكشاف المكان بومض البرق النازل من النافذة))[٦٠] فالملجأ لم يكن المكان الذي تطمح الشخصيات في قضاء ليلتها فيه وهذا واضح من فعل الجارة التي((كانت قد سبقتنا جارتنا إلى البيت))[٦١] فمشاعر العداء تجاه ذلك المكان واضحة، هو مكان غريب وغير محبب.

الخاتمة:

١- المكان يعد أحد المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها أي نص سردي وإن النص إذا خلا من المكان أصبح ليس بذي قيمة.

٢-المكان في النص الإبداعي ليس مجرد أبعاد جغرافية تحتضن الحدث بل هو أيقونة مكتنزة بالدلالات يوظفه الكاتب لغاية معينة.

٣-المكان عنصر عالي المرونة له القدرة الكبيرة على إنشاء علاقات مع باقي العناصر المكونة للنص وإن أهمية المكان وما يحمل من دلالات تبرز عبر هذه العلاقات.

٤-إن من أهم العلاقات التفاعلية التي ينشؤها المكان هي علاقته مع الشخصية فما بين المكان والشخصية علاقة وثيقة ومتينة مبنية على التأثير والتأثر.

٥-ومن علاقة المكان والشخصية قد جرى إفراز نوعين من الأمكنة هما(المكان الأليف، والمكان المعادي) ونعني بالمكان الأليف هو كل مكان يثير في النفس شعور الراحة والاطمئنان أما بالنسبة للمكان المعادي فهو كل مكان نشعر تجاهه بالنفور والكره.

٦-استعمل الكاتب علاء شاكر عددًا

من الأمكنة المحببة متمثلة بالبيت والنهر والحدائق والأماكن المقدسة وقد رسم كل مكان فيهما بدقة وبين مدى التأثير الإيجابي لهذه الأمكنة في الشخصية.

٧-استعمل الكاتب أيضا أماكن معادية كالمعسكرات وسوح المعارك والملاجئ والمدينة وبين مدى التأثير السلبي الذي تحدثه في نفس الشخصية وهذا نتاج ما رافق المكان من ظلم وموت وحزن وأسى.

الهوامش:

١- الرواية العربية:محمد صالح الشنطي، دار الأندلس، الحائل، ٢٠٠٤، ط١، ص: ١٢٣.

٢-ينظر:المكان المتحول في قصص المعدان قراءة مفتوحة: ضياء راضي ثامر، مجلة آداب البصرة، ع:٥٠، ٢٠٠٩، ص:٢.

٣-ينظر:الآخر والمكان الأيديولوجي في الرواية الخليجية دراسة في نماذج منتقاة: عروبة جبار صواب الله و ناجح سالم موسى المهنا، مجلة آداب البصرة، ع:٨٧، ٢٠١٩، ص:٧١.

٤-جماليات المكان:غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٥، ٢٠٠٠،ص:٥-٦.

٥-الرواية والمكان: ياسين النصير، (سلسلة الموسوعة الصغيرة٥٧)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٠، ص:١٥.

٦-ينظر: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (١٩٤٧-١٩٨٥:شريبط أحمد شريبط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، ١٩٩٨،ص؛٣٧.

٧- الفضاء الروائي:جنيت - كولدنستين -رايمون -كريفل - بورنوف-اويلي- ايزنزفايك -ميتران، ترجمة:عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، المغرب، بيروت، د.ط. ٢٠٠٢م،.،ص: ٣٣

٨- بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- الشخصية): حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص: ٣٢.

٩-ينظر: الفضاء الروائي، ص:٦

١٠-في مديح الصحراء عن رواية(فساد الأمكنة، محمد محمد مستجاب)، مجلة الرواية، ع:١٣، ٢٠١٤، ص:٣٨.

١١-الزمان والمكان في روايات غائب

طعمة فرمان، د. علي إبراهيم، الأهالي للطباعة و النشر و التوزيع، ط١، ٢٠٠٢، ص٨٦.

١٢-ينظر:أثر المكان في شعر مصطفى جمال الدين: عبد الهادي عبد الرحمن الشاوي، مجلة آداب البصرة، ع:٦٥، ٢٠١٣، ص: ١٢٩.

١٣-ينظر:البناء الفني في الرواية العربية: شجاع مسلم العاني، ص: ٢٥٩.

١٤-ينظر:البناء الفني في الرواية العربية في العراق(الوصف وبناء المكان): شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٢، ص٩٩.

١٥-ينظر:خزانة الحكايات الإبداع السردي و المسامرة النقدية، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص:٢١٧.

١٦-(٢)جماليات المكان، ص:٢٥.

١٧-شعرية المكان عند ياسين النصير: إيناس عبد الرحيم رمضان الحميري، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، ٢٠١٤، ص:١٦.

١٨-(٤)خط أزرق خط أحمر، ص٤٠.

١٩-م.ن، ٤٠.

٢٠-المكان نفسه

٢١-(٣)رجل في عقل ذبابة، ص ١١٩

٢٢-المكان نفسه

٢٣-خط أزرق خط أحمر، ص-١١-١٠.

٢٤-م.ن، ٧

٢٥-م.ن، ص٨

٢٦-ص١٠

٢٧-المكان نفسه.

٢٨-رجل في عقل ذبابة،ص:١٣١.

٢٩-م. ن، نفس المكان.

٣٠-م.ن، نفس المكان

٣١-م.ن،ص ١٣٢.

٣٢-رجل في عقل ذبابة، ص ٦٢

٣٣-المكان نفسه

٣٤- مقبرة الإنكليز،، ص:١٧.

٣٥- شعرية المكان عند ياسين النصير،ص:٥٩

٣٦-ينظر:المكان غير الأليف ودلالته في شعر محمود البريكان:صبار شبوط طلاع و عبد الكريم خالد عناية، مجلة آداب البصرة، ع:٧٢، ٢٠١٥، ص: ٥٢.

٣٧-مقبرة الإنكليز، ص٢٦

٣٨-م. ن، ص٥٢

٣٩-م. ن، ٥٩.

٤٠-م. ن، ٢٧.

٤١-م. ن، ٥٩- ٦٠.

٤٢-م. ن، ص٨٥

٤٣-م.ن، ص:٢٥.

٤٤-خط ازرق خط احمر، ص١٩

٤٥-المكان نفسه

٤٦-المكان نفسه

٤٧-المكان نفسه

٤٨-خط أزرق خط أحمر، ص١٩

٤٩-رجل في عقل ذبابة، ص١٠٧.

٥٠-م. ن، ص ١٠٩.

٥١-مقبرة الإنكليز، ص ٣٠-٣١

٥٢-مقبرة الإنكليز، ص ٣١.

٥٣-المكان نفسه

٥٤-المكان نفسه

٥٥-م. ن، ص ٣٣.

٥٦-م. ن، ٣٤.

٥٧-المكان نفسه.

٥٨-م. ن، ص٣٥.

٥٩-خط أزرق خط أحمر، ص٢٦.

٦٠-رجل في عقل ذبابة، ص ٩٨.

٦١-م. ن،ص ٩٩.

المصادر والمراجع:


١- أثر المكان في شعر مصطفى جمال الدين: عبد الهادي عبد الرحمن الشاوي، مجلة آداب البصرة، ع:٦٥، ٢٠١٣

٢- الآخر والمكان الأيديولوجي في الرواية الخليجية دراسة في نماذج منتقاة: عروبة جبار صواب الله و ناجح سالم موسى المهنا، مجلة آداب البصرة، ع:٨٧، ٢٠١٩،.

٣- البناء الفني في الرواية العربية في العراق(الوصف وبناء المكان): شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ج٢.ط١، ٢٠٠٢.

٤- البناء الفني في الرواية العربية(بناء السرد): شجاع مسلم العاني، ج١،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،د.ط،١٩٩٤.

٥- بنية الشكل الروائي(الفضاء- الزمن- الشخصية): حسن بحراوي،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

٦- تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة(١٩٤٧-١٩٨٥):شربيط أحمد شربيط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، ١٩٩٨.

٧- جماليات المكان:غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٥، ٢٠٠٠.

٨- خزانة الحكايات الإبداع السردي و المسامرة النقدية، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،بيروت، ط١، ٢٠٠٤،

٩- خط أزرق خط أحمر: علاء شاكر،دار الرسوم للصحافة والطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٥.

١٠- رجل في عقل ذبابة، علاء شاكر، مطبعة النخيل، البصرة، ط١، د.ط.

١١- الرواية العربية:محمد صالح الشنطي، دار الأندلس، الحائل، ٢٠٠٤، ط١.

١٢- الرواية والمكان: ياسين النصير،(سلسلة الموسوعة الصغيرة٥٧)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٠.

١٣- الزمان والمكان في روايات غائب طعمة فرمان، د. علي إبراهيم، الأهالي للطباعة و النشر و التوزيع، ط١، ٢٠٠٢،

١٤- شعرية المكان عند ياسين النصير: إيناس عبد الرحيم رمضان الحميري، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، ٢٠١٤،

١٥- الفضاء الروائي:جنيت - كولدنستين -رايمون -كريفل - بورنوف-اويلي- ايزنزفايك -ميتران، ترجمة:عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، المغرب، بيروت، د.ط. ٢٠٠٢م،.

١٦- في مديح الصحراء عن رواية(فساد الأمكنة، محمد محمد مستجاب)، مجلة الرواية، ع:١٣، ٢٠١٤،

١٧- مقبرة الإنكليز: علاء شاكر، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ط١، د.ط.

١٨- المكان المتحول في قصص المعدان قراءة مفتوحة: ضياء راضي ثامر، مجلة آداب البصرة، ع:٥٠، ٢٠٠٩.

١٩- المكان غير الأليف ودلالته في شعر محمود البريكان:صبار شبوط طلاع و عبد الكريم خالد عناية، مجلة آداب البصرة، ع:٧٢، ٢٠١٥